القيم الروحية بين العلم والمادة(*)

للأستاذ واصف البارودى

الإنسان مجموعة متناقضات ؛ لذلك تراه متناقضاً فى طبعه وفطرته . فهو صادق كاذب ، وكريم بخيل ، وشجاع جبان ... الخ ولا تجد صفة من هذه الصفات متلبسة بلباس الفضيلة والرذيلة حتى ترى إمكان تلبسها بالكفاء الآخر . فالصدق أب الفضائل ، والكذب أم الرذائل ؛ ومع ذلك ألا تجد الصدق رذيلة فى النميمة ونقيصة فى الغيبة ؟ ... ثم ألا نعتبر بعض مظاهر من الكذب ، فى إصلاح ذات البين مثلا ، فضيلة ندعو إليها ؟ ... وهل فى العالم إنسان يعتبر البخل فيما تستلزمه الكرامة الإنسانية ، وفيما تقتضيه واجبات المحافظة على الوطن رذيلة ما ؟ وهل فى السماح بأرض الوطن فضيلة ترتاح لها النفوس ؟ ... مثلا . فأين الفضيلة ؟ وأين الرذيلة إذن ؟ ... أهما مستقران فى الألفاظ ؟ أم هما من المعانى المنبثقة من صميم النفس بحسب إشعاع روح المجتمع فيها بأمر من الخالق المدبر ، وبحكمته ؟ ...

المطلق هو الله وحده ، وكل ما يصدر عن هذا الكون نسبى لأنه خاضع ، بحسب تكوينه ، للتطور والتحول ، بحكم مطاوعته لفعل المؤثرات فى الخارج ، وبحكم استجابته لأحكام التفاعل التكوينى المستمر فى داخله . فلا غرابة إذا تجاذبته التناقضات ، ولا عجب إذا اشترط تحققه الإنسانى بتحقيق التوازن بين تلك التناقضات ، وبتركيزها ! ...

لكل كائن خصائصه التى يتميز بها ، ويعرف . وخصائص الإنسان إنما تتجلى بمظاهر إنسانيته . وهذه لا تبرز إلا بتحقق الإرادة والحرية . وبقدر ما يتنازل الإنسان عن إرادته وحريته ، يتنازل ، فى الحقيقة ، عن إنسانيته . ولذلك كانت الحياة البشرية فى الأفراد والمجتمعات ، كفاحاً مستمراً بين عزة الحرية ومنة الإرادة ، وبين ذل الجبرية واستسلامها . فالجبرية ضعف وجمود ، والحرية قوة وتجدد . وهاتان العقيدتان المتناقضتان تلخصان ، فى الحقيقة ، تاريخ البشرية منذ وجد الإنسان .

فمنذ تعرف الإنسان بهذا الكون المادى فكر بالسيطرة عليه وكان التوفيق حليفه فى جميع الأدوار . غير أن المادة لم تكن تعجز عن الانتقام منه كلما وجدت لذلك سبيلا ، ومظاهر انتقامها أبرز ما يكون فى سوقه إلى جبريتها ، والجبرية هى الصفة اللازمة للمادة ، ووسيلتها فى الإنسان جسمه ، إذ الحرية صفة تلازم الأرواح ، والإرادة مظهر سام لها ؛ ولا تكاد المادة تسوق الإنسان لجبريتها حتى ينقاد لهواه ويمنى إرادته . ومنشأ الهوى فؤاد هدام ، وسريرة مظلمة . وفى ظلام الفؤاد والسريرة تتناثر الفكرات السامية وتلتحق بالعدم ، فلا يكون لها أى تأثير فى توجيه الإنسان ، أو فى تحقيق إنسانيته ؛ فيعيش حيواناً يدعى أنه إنسان ناطق .

الإنسان مجموعة متناقضات ، وبقدر تقدمه فى الحضارة تزداد مظاهر التناقض فى نفسه . ولا تتجلى إنسانيته إلا فى إيجاد التوازن بين تلك التناقضات ، وفى تركيزها ، على ما سبق وألمعنا إليه . وهذه هى الحكمة التى تقضى بوضع كل شئ فى محله ؛ وبهذا تتكون حقيقة الفضائل وتتفاعل عناصرها . قال أحد الفلاسفة : « ليست الفلسفة إدراكاً وتأملا وحسب ، وإنما هى حكمة » .

المادة والعلم :

من مظاهر التناقض فى نفس الإنسان تعلقه بحقائق العلم ومستلزماته ، وحرصه على مقومات الجسم والتنعم بلذاته . فالعلم والمادة متناقضان بحسب الظاهر ، ولكنهما فى الحقيقة ، وسيلتان تصلحان لرفع مستوى الإنسان بتحقيق إنسانيته الفردية والاجتماعية ، إذا أحسن التصرف ، وعرف حدود كل منهما ، وكان لبقاً فى استخدامه . والخير ، وكل الخير ، يستقر فيهما معاً ما داما يستعملان أداة أو وسيلة ؛ ومتى أصبح أحدهما غاية للانسان فى حياته ، تبدأ الشرور .

فالمال ، مثلا ، مع فوائده الجمة يقوم عثرة فى سبيل التقدم متى حصل اضطراب فى نظام جمعه وتوزيعه ، فيصبح بعبداً عما تقتضيه الحياة الاقتصادية والحياة الإنسانية من رقى . ويكون مظهر الاضطراب المادى فى أمور ثلاثة هى :

(*) ملخص الحديث الذى ألقى فى الجامعة الأمريكية فى القاهرة يوم الخميس فى ٣١ مارس سنة ١٩٤٩

١ — تعقيم المال : وهو الرغبة فى جمعه وكنزه فى الأرض ، أو فى الصناديق ، فيصبح عقيما ، إذ لا ينتج أعمالا ، ولا يساعد على تحقيق أى مشروع .

٢ — تحكم الآلة : والآلة إذا تحكمت بالإنسان تحوله لآلة . ولا نخشى هنا من أن تصبح وسيلة لكثرة العاطلين عن العمل ، وحسب ؛ وإنما نخشى أن تنقلب نفسية الإنسان وروحه لنوع من الآلية فيفقد بذلك إنسانيته . وتدارك هذا الخطر إنما يكون بالتربية وبتبديل أنظمة العمل وتثقيف العمال .

٣ — اتخاذ المادة معياراً للقيم . ومتى اتخذ المادة معياراً للقيم انجذبت إليها النفوس فتتأثر بخصائصها المميزة لها ، وأهمها الجبرية فيعتقد الإنسان بأن مساق جبر حسب النواميس التى تساق بها المادة نفسها . وهنا يمكن الخطر .

وأما العلم فإنه يظهر لأول بادرة أنه يتعلق بالنفس لتعلقه بالمعرفة . وهو من حيث الغرض متعلق بالمادة نفسه ، لأنه وسيلة التحكم بها مبدئياً . ونخشى عند ما يتعلق العلم بالمادة تعلقاً شديداً أن يكتسب منها صفة الجبرية ، فيقول بها ، كما ظهر لنا من أقوال كثير من العلماء ، ولا سيما فى عصور الانحطاط . وقد ظهرت بوادر هذه العقيدة عند الكثيرين من علماء عصرنا هذا ، فكانت دليلاً على ظهور أمارات الانحطاط فى مؤسساته العلمية والاجتماعية ، وأخذت الحضارة تنذر بالانهيار .

قال مونتانى : « من الجرأة الغريبة أن يرفع إنسان نظره أمام العلم » فأجابه هنرى ماريون مؤخراً قائلاً : إننا نحترم العلم ونخضع له ، ولكن هل يقضى علينا ذلك باحترام العلماء أصحاب النظرات التصاعدية التى تتصل بالأوهام والسخف ، وبالخضوع للعالم الذى يتخذ علمه وسيلة لانتناص المادة والمناصب ، وخداع الناس ؟..

أننا نعرف كثيراً من الحوادث التى اتخذ بها العلم وسيلة لتحقيق مآرب خاصة ، واقتناص فوائد مادية ، دجلاً وتزييفاً ، ومن قبل أناس مشهود لهم بالعلم والثقافة ، وكانوا ، فى الحقيقة ، على شئ من العلم والمعرفة . ولا يندر أن نجد مثقفين يقولون ما لا يفعلون ، نفاقاً ورياء ؛ فهم يتخذون المعرفة والمبادئ وسائل رخيصة فى سبيل تحقيق ما تميل إليه أهواؤهم ، وأشباع جشعهم وأطماعهم .

القيم :

العلم ، بذاته ، لا يعرف الخير ولا الشر . والمادة بذاتها ، لا تعرف الخير ولا الشر . وكل شر أو خير يتأتى عن العلم أو المادة ، إنما يكون منشأه الإنسان . فالخير والشر كامنان فى نفس الإنسان وحده ، وفى روحه ... ومن هنا نستطيع أن ندرك أهمية القيم .

يقول الشاعر :

قيمة الإنسان ما يحسنه أكثر الإنسان منه ، أو أقل

وأسمح لنفسى أن أقول : قيمة الأعمال تقدر بنسبة صلتها بروح الإنسان . فالإنسان هو معيار كل شئ ، حسب تعبير بروتاغوروس لا العلم ولا المادة ، ولا العمل نفسه .

القيم الروحية :

القيم تتصل بالأعمال التى يقوم بها الإنسان . فكل عمل نقوم به ، إنما يقدر ببواعثه . فإذا كان منشأه الهوى ، أى الفؤاد المبهم المظلم ، أو بتعبير آخر : النفس الأمارة بالسوء ، فلا تكون له أية قيمة إنسانية ، لأنه فى هذه الحالة يكون فعلاً مجبراً . وليس للأعمال الإنسانية قيمة صحيحة إلا إذا صدرت عن الإرادة المتحققة فى الحرية . فصلة الأعمال والسلوك بروح الإنسان أى بإنسانيته ، هى التى تهبها قيمة ما . والروح لا تكون روحاً إلا بالإرادة والحرية ، لأن الروح ، فى حقيقتها ، حياة وحركة وتقدم وثورة .

وتقدر قيمة الأعمال بالبواعث . فإذا كانت البواعث أموراً خارجة عن الروح ، أو بتعبير آخر : إذا لم تكن منبثقة من الفعالية الروحية ، فلا يكون للعمل قيمة روحية ، وإنما تنسب قيمته إلى الباعث الذى أدى لوجوده . فإن كان كسب المال ، مثلا ، فتكون قيمته مادية ، وإن كانت الشهرة ، فهى الزهو والغرور . فما رأيك فيمن يولم وليمة وينفق عليها بسخاء ، ويكون له من ورائها مآرب تجارى ؟ أيصح أن يدعى كريماً ؟ أعتقد أن من ينفق قرشاً على فقير يباعث الشفقة والرحمة ، هو أجدر بالاتصاف بالكرم من ذاك المستثمر . إن صفة الكرم وأمثالها لا تمنح إلا لمن يقوم بهذا العمل بباعث روحى داخلى ، لا لمآرب خارجية .

فالقيم الروحية إنما تقوم بالروح ، بصفة أنها محل بنائها ، وبسبب البواعث على العمل . وهذه القيم يسبقها نزوع له مبدأ ، وله غاية ، وبينهما قوة حركية يمثلها الحدس والعاطفة . فإما أن تذهب إلى النفس الظالمة فتنقاد للهوى ، وإما أن تتصل بالفؤاد البناء فتتصل بالإرادة ، فيكون العمل إراديا حراً ، أى إنسانيا . صور أحدهم من يبذل من ماله دون أن يكون لبذله أية قيمة روحية فقال :

يعطي ويمنع ، لا بخلا ولا كرماً   وإنما نزعات من وساوس

أثر الانفعال والتفكير في القيم :

ومما يقوى هذه النزعات ، ويبعدها عن نظام القيم الروحية ، الانفعال . والانفعال نسيب الهوى . ولذا يقول علماء النفس : إن الأمم الكثيرة الانفعال قليلة الإنتاج . ألا ترانا نحن في مؤسساتنا وفي منظماتنا ، كثيراً ما نبدأ بحماس شديد ، وننتهي إلى لا شيء ؟ ونعبر عن ذلك بقولنا : « إننا نثور فورة الحليب » . وهذا ما يتهمنا به الغربيون فيقولون عنا : إنهم يسيطر عليهم الانفعال فلا تخشوهم ؛ ولكن اصبروا عليهم بادئ الأمر ، وسرعان ما يهدأ انفعالهم ، ويسكن في نفوسهم الحماس .

إننا نحترم الأمم التي تعتمد على التفكير في سلوكها ، فلم لا نجعل التفكير والتؤدة من مبادئ سلوكنا ، أي من القيم الروحية التي يجب أن تصدر عنها انفعالاتنا النفسية ؟ وهل شيد أسلافنا صروح الحضارة إلا بهذا التفكير ؟ ...

المثلث الخالد :

تتجمع هذه القيم الروحية في المثلث الخالد ، وهو الحقيقة والجمال والخير . فالحقيقة توافق داخلي بين فعالية الروح وموضوعها . والإنسان بحاجة لمعرفة الحقائق ليحيا إنساناً . ولا يمكن الحصول على الحقيقة إلا إذا تجردنا عن مصالحنا وأهوائنا .

فللحقيقة قواعدها الخاصة ، وهي موجودة في الكون ، ولكنها موجودة بالقوة ، والإنسان هو الذي يخرجها لخير الفعل ، تصبح به كائنة بالفعل . والإنسان الذي أنيط به إخراجها لخير الفعل يستطيع تزييف هذه الحقائق وقلبها ، ومن هنا يصدر إمكان الدجل والتزوير ، من العلماء أنفسهم .

والفرق بين الحقيقة المجردة والحقيقة المزيفة أن الإنسان يصل للأولى بقدر ما يترك نفسه على سجيتها ، ومتى أراد التزييف بذل جهداً خاصاً . ولذلك تقع التبعة في تزييف الحقائق على الإنسان وحده ، لأنه يقوم به بمحض إرادته . ولعمري أنها جريمة من أفظع الجرائم ، سواء أخدع الإنسان بذلك نفسه ، أم خدع الآخرين .

أما الجمال فهو ما يثير في النفس الانبساط والإعجاب معاً . وأقصد بالانبساط معناه اللغوي ، أي امتداد النفس واتساعها ، فيشعر الإنسان أمام أي مظهر من مظاهر الجمال بامتداد في روحه يجعله يحاول أن يتجاوز نفسه في السمو .

تصور نفسك أمام أثر فني رائع ، وأثر معماري خالد ، أو أنك تقرأ قطعة أدبية فنية ، أو تستمع إلى سيمفونية راقية ، أو أنك أمام غير ذلك من آثار الفنون الجميلة ، فتشعر بذلك التأثير ، إذا كان في روحك انطلاق . وما ذلك إلا لأن الجمال ، في حقيقته ، حر مجرد ؛ والتأثر به إنما يكون نتيجة لفعالية روحية حرة مجردة . فمتى اتصل هذا الإحساس بمأرب أو غرض ذهبت روعة الجمال ، وضاعت على الإنسان مسرات سحرة ، فيصبح حيواناً غريباً ، يفسد على الجمال روعته ، أو يخسر الجمال قيمته الروحية .

تذوق الجمال استجابة لفيض من القوة الروحية وفعاليتها ، يبذلها الإنسان للبذل . كلما يشعر ، لاسيما في أوقات فراغه ، بفيض من الفعالية يحتار في أمر استخدامها ؛ فإذا لم تجد مخرجاً ألقت بالإنسان في غياهب الذهول ، فيصبح أسير الأحلام النهارية ، ويتأثر بالمنامات . وهذه حالة كثيراً ما تؤدي إلى الضعف والفساد . إن قوى الإنسان بحاجة لأن تمرن للتمرن ، فلا تكتفي بالعمل المادي ؛ فوجب أن تصرف في الألعاب ورياضة الجسد ، وفي تذوق الجمال في مظاهره المختلفة من أدب وموسيقى وتصوير وغيرها من آثار الفنون الجميلة .

فإذا اهتمت الأمم الراقية بهذه الفنون وبالرياضة البدنية ، فإنما تعني بذلك لتحفظ في الشباب قوامه الروحية ، ولتنمي هذه القوى ، خشية من تحولها لفساد ، أو ذهول ، تضعف معها إنسانية الإنسان وقد تتلاشى . فلا غرابة إذا رأينا المربين يؤيدون مبدأ إصلاح المجتمع بالفنون الجميلة وبتشجيعها .

إن الفنان الجدير بفنه يتحكم بالزمن تحكما لا يستطيعه غيره . يستطيع كل إنسان أن يعود إلى أى مكان سبق وسر به ؛ ولكنه لا يستطيع أن يستعيد لنا لحظة مرت سوى الفنان من بنى الإنسان . والفنان يستطيع ، عدا ذلك ، أن يستبق تلك اللحظة ، وأن يخلدها . فإنه يأخذ من أى مظهر من مظاهر الجمال ، وقد تجلى فى زمن من الأزمان ، عناصر خالدة يركب منها رائعته التى تحفظ لك ذلك التجلى وزمنه ، ويجعل باستطاعتك العودة إليه متى أردت. فكأنه يحرر هذه العناصر من جبرية المادة وتواميسها ، ويمنحها كياناً جديداً يصله بروحك . وهذا ما يضمن للأثر الفنى الخلود . إنه قد عبر عن نفسية الفنان ، وانبثق عن روحه ، فكانت له قيمته الروحية . ولهذا جعل الفلاسفة الجمال مبدأ للخير .

والخير هو حصول الشىء على كماله ، أو ، حسب تعريف بعض المعاصرين ، ما يجب اختياره .

فالحرية والإرادة شرطان أساسيان فى تحقيق وجوده ولا يستطيع الإنسان أن يكون حراً فى اختيار ما يجب اختياره إلا إذا كان متفقاً لحد ما .

ومن هنا نشأت فكرة وجوب المناية بتثقيف الجماهير فى الأمم الديمقراطية الحرة ، إذ مهما كان العمل عظيما ، فلا يعتبر فضيلة ، إن لم يقترن بالفهم والتفكير ، أى بالروح العلمية .

فهذه القيم : الحقيقة والجمال والخير ، مهما افترقت فى مفاهيمها ، فإنه يجمعها أنها تشترك كلها فى تكوين المثل العليا الصحيحة . ولا تكون المثل العليا صحيحة إلا إذا دخلت فى دائرة التأمل والإرادة ، وكانت نورية فى طبيعتها .

قال بيجوى : « ... وهكذا ، فإن أول شكل للمثل الأعلى فى التاريخ ، وأول شكل يكشفه ، هو النقد والمناظرة ، وإنه ، لدرجة ما ، ثورى دائماً » . ولعله يقصد بالثورة ، هنا ، ثورة النفس على النفس ، ليتم الانقلاب فيها أولا ، قبل أن تفكر فى قلب المجتمع : « لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » . (قرآن كريم)

إننا ندعو للقيم الروحية لتستقر مشاريعنا ، وتستمر ؛ لأن المشاريع التى تتعلق بالفرد تزول بزواله ، أو بزوال نشاطه . قال ويلز : « إذا أردت أن تبعث شعباً من الشعوب من غفوته ، فحسبك أن تبعث فى حياته روحاً علمية فى التفكير ، وشعوراً لطيفاً فى النفس يتفجر عنه الحب والعواطف » .

ومن هنا يجب أن يندفع الإنسان إلى العمل . فلا بد فى الحصول على ثمرات القيم الروحية ومباهجها وفى بلوغ نتائج تأثيراتها الرائعة فى توجيه الأمم وإنهاضها وعظمتها ؛ لا بد فى ذلك كله من أن يبدأ المواطنون بثورة النفس على النفس ؛ ولا ينسى لأى إنسان القيام بهذه الثورة إلا بعد تحطيم الأصنام المتربعة على عرش قلبه ، قبل كل شىء .

لا يمكن معرفة الحقيقة الناصعة ، وتذوق الجمال الرائع ، والانجذاب إلى عمل الخير النافع ، ولا يستطيع الإنسان اعتناق المثل العليا ، وهى وحدها تبعث الاطمئنان فى النفوس ، إلا بمواجهة الواقع . ومواجهة الواقع بصدق وإخلاص ودراية يقضى حتما بتحطيم ما فى النفس من أصنام تدفعها لطرق ملتوية لا تستقيم معها النفوس . والأصنام كثيرة : منها ما هو مادى خارجى يؤثر فى النفوس ، كالمظاهر المادية ووسائل الترف ؛ ومنها ما هو نفسى داخلى يتأكل فى النفس إنسانية الإنسان . وكل امرىء يعرف أصنامه ، وما دام عابداً لها فليس له أن ينتظر رقيا ولا تقدما فى نفسه ، بله فى مجموع يعتمد عليه .

قال باروودى : « نخشى من جمود المؤسسات والأخلاق والعقائد ، لئلا تتحول لآلية نفسية أو اجتماعية ، تصبح معها عائقاً عن التقدم » .

فلا يكفى إذن أن تبنى القيم الروحية ، بل يجب أن تتجدد حيويتها فى نفوسنا بقوة فعاليتنا الروحية ، ولا يتم ذلك على أكمل وجه عن التزوير والدجل والتزييف ، إلا إذا اتصلت بالمثل الأعلى الأعظم ، وهو جماع القيم الروحية فى سموها ، أى الحقيقة المطلقة ، والجمال الأسمى ، والخير الأعظم ، وهو الله .

فتى اتصلت قيمنا الروحية بالله ، تصبح روحانية ، فتتوازن وتتركز وتتوحد ، وتكون منشأ الوحدة بين البشر ، إذ لا يجوز أن يكون اسمه ، جل شأنه ، وسيلة تفرقه بين المواطنين والشعوب والأمم .

واصف البارودى